



فاطمة ناصر

ملاحم عامة لعلم الكلام في التراث الإباضي المغاربي

الآتي عرضه هنا مقال محمد الشيخ المنشور في مجلة التفاهم (من مآثر علم الكلام الإباضي بشمال أفريقيا - نظرة إجمالية) والذي يتناول عرضاً عاماً وافياً لهذا العلم وكيفية تناول الإباضية المغاربية له. وتتجلى أهمية هذا المقال في ندرة المادة المتوفرة حول علاقة الإباضية بعلم الكلام وقلة ما يعرفه العامة عن تراث هذا العلم في المذهب الإباضي. وقبل أن نشرع في عرض الموضوع، سوف أبدأ بتعريف علم الكلام وأتبعه بأبرز ملاحم وسمات هذا العلم في التراث الإباضي بشمال أفريقيا.

لم يكن علم الكلام منبوءاً في عهد الدولة الرستمية وفي ذلك يقول أبو زكريا الوارجلاني في كتابه (كتاب السيرة وأخبار الأئمة): «وكان بيت الرستميين بيت العلم في جميع فنونه، ومن الأصول والفقه والتفاسير، وفنون الرد على المخالفين، وعلم اختلاف الناس، وعلم النحو واللغة والإعراب والفصاحة، وعلم النجوم) وكذلك ما ذكره ابن الصغير - مؤرخ الدولة الرستمية - في كتابه (أخبار الأئمة الرستميين) عن رجل يدعى محمود بن بكر كان يدافع عن الإباضية «يذب عن بيضتهم ويدافع عن دينهم، ويرد على الفرق في مقالاتهم، ويؤلف الكتب في الرد على مخالفهم». ومن أبرز علماء هذا العهد:

1- عيسى بن علقمة المصري. أبرز أرائه الكلامية: أن أسماء الله مخلوقة، وأن صفاته محدثة.

2- مهدي النفوسي الويفوي. له كتاب بالبربرية للرد على الفرق النفاثية وزعيمها.

3- الخليفة محمد بن أفلح. أبرز مؤلفاته: (رسالة إلى المسلمين في الرد على من لا يقول بخلق القرآن) مرحلة الكتمان وعلم الكلام:

تمتاز هذه المرحلة بوضوح علم الكلام ورسوخه وتداول الحديث فيه في بعض الأحيان بين الخاصة وعامة الناس، وظهور المجالس والحلقات التي يتداول فيها. إلا أنه من المثير أن نعلم أن أبرز علمائه كأبي الربيع سليمان بن خلف النفطي القابسي كان شديداً على من يقرأ كتب المخالفين مخافة الفتنة والفرقة. ويعزو الكاتب إحياء هذا العلم إلى أمرين:

1- شأن داخلي: الانشقاقات الداخلية حيث انقسموا فيما بينهم إلى: وهبية ونكارية وغيرها.

2- شأن خارجي: الاختلاف المذهبي من حولهم من أصلية وصفرية وشيعية وعبيدية والحشوية المالكية.

وكان أئمة الإباضية يدعون من قبل السلاطين للتناظر مع مخالفهم.

أما أبرز علماء هذه المرحلة فهما:

1- أبو عمار عبد الكافي.

2- أبو يعقوب الوارجلاني.

الأخرى، والسبب الآخر وهو الأكثر تأثيراً في نظري تشدد بعض علماء الإباضية، كما قال الكاتب - شأنهم شأن الكثير من علماء السنة - في النهي عن الاطلاع على كتب المخالفين من المذاهب المختلفة وهو الشرط اللازم لممارسة علم الكلام. وأبرز من قال في ذلك:

1- الشيخ أبو الربيع سليمان بن خلف النفطي القابسي من علماء القرن الخامس الذي تشدد في النهي عن مطالعة كتب المخالفين خشية الفتنة والاختلاف.

2- الشيخ عبدالله بن عيسى الوسياني وله نفس توجه الشيخ أبي الربيع وكان من المعاصرين له.

ويضيف الكاتب سبباً - لم يقنعني شخصياً - ومفاده صعوبة علم الكلام ووعورة مأخذه ولعل هذا ما جعل الكثير من العلماء يتوجهون إلى علم الفروع والشريعة كونه الأيسر. وسبب عدم اقتناعي بهذا القول أن العلماء الإباضية لا تنقصهم القدرة العقلية في الرد على مخالفهم بل إن تراثهم يعكس جدارتهم العقلية والمعرفية؛ فعلم الكلام صعوبته عامة للعالم الإباضي وغير الإباضي ولا أراه سبباً من أسباب ندرة تداول العلم بينهم. وقد أورد الكاتب كثرة آثار الإباضية في فروع العلم المختلفة من: فقه وأصول وحديث وندرة كتبهم في علم الكلام والتصوف. وفي المجمل كان الإباضية مقلين في التأليف مقارنة بغيرهم من المذاهب مما دعا العلامة نور الدين السالمي إلى الرد بمقالة (في كثرة كتب الإباضية). ولا أرى أن ذلك الادعاء يستدعي الرد والدفاع فكتب الإباضية كثيرة بالمقارنة بعددهم. فأعداد الإباضية أقل بكثير من أعداد المنتميين إلى المذاهب الإسلامية الأخرى، وليس من المنصف مطالبتهم بأن يكون إنتاجهم أكثر من غيرهم.

أبرز ملاحم علم الكلام الإباضي بشمال إفريقيا:

لعل أبرز ملاحم هذا العلم لدى الإباضية أنه: كلامٌ مَنْفَى، وعلمٌ أَقْلِيَّةٌ، وعلمٌ كِتْمَانٌ محصور به على أهله محروم منه غيرهم. وقد ظهر تارة وخفت حسب الوضع السياسي. ومن الغريب أن علم الكلام ازدهر - كما يرجح الكاتب - في عهد الكمون وليس في عهد ظهور الدولة الرستمية التي دامت ما يقارب قرناً ونصف والتي تصنف بأنها الدولة الوحيدة التي نجح في تأسيسها الإباضية بشمال إفريقيا.

مرحلة الظهور وعلم الكلام:

أولاً: ما هو علم الكلام؟
لعلم الكلام أسماء عدة أبرزها: علم التوحيد، وعلم أصول الدين، وعلم الفقه الأكبر، وعلم أصول السنة، وعلم الإيمان، وعلم الأسماء والصفات.

وقد أورد الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل): «ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسماً إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل، والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصولياً، ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعياً، والأصول هو موضوع علم الكلام، والفروع هو موضوع علم الفقه».

تعريف ابن خلدون: «الكلام علم يتضمن الحجج عن العقائد الإيمانية، بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة».

أما الفارابي فيعرفه في كتابه (حصر العلوم) بالآتي: «صناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصره الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف ما خالفها بالأقوال».

وبمقارنة هذه التعاريف ببعضها يمكننا القول إن هذا العلم أبرز ما يميزه أنه علم يعتمد على الحجج العقلية وعرض الأدلة لنصرة آراء مذهب معين، وهو يتناول الأمور المتعلقة بالأصول وهي العقائد الإيمانية. وهذا الحجج لا بد له من خصم ومخالف في وجهة النظر. ونلمس من تعريف ابن خلدون أعلاه طبيعة هذا الخلاف فقوله «إن علم الكلام هدفه الرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السنة وأهل السلف» يوضح أن علم الكلام يمثل مبارزة كلامية وحرماً عقلياً بين أنصار المذاهب المختلفة.

وهناك الكثير من التعاريف والشروحات عن هذا العلم، وما أوردته هنا ليس سوى نماذج بسيطة الهدف منها تبسيط معناه أمام القارئ ليسهل عليه فهم الحديث القادم.

علم الكلام الإباضي وأسباب ندرة حضوره:

يعزو الأستاذ محمد الشيخ أسباب ندرة حضور علم الكلام الإباضي إلى سببين يتحدث عنها كعلمين مزدوجين أحدهما عام وهو: أن علم الكلام الإباضي طاله ما طال علم الكلام عامة من الإهمال في تحقيق نصوصه وإهمال من درسها ومن تخصص فيها. أما الآخر الخاص فيتخلص في ندرة تدوين هذا العلم من قبل الإباضيين رغم كثرة تدوينهم في العلوم